مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

ISSN: 2617-5908

التركيب القرآني.. تقنيات البناء وثراء الدلالة

"قراءة في عينة من السور القرآنية"(*)

إعداد

د/ عبد القوي محمد أحمد الحصيني
أستاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامـــــعة جـــــازان
المملكة العربية السعودية
aamttt@yahoo.com

*)- تاريخ تسليم البحث ٢٠١٩/٩/٣م تاريخ قبوله للنشر٢٠١٩/٩/٢٣م

الملخص

تسعى الدراسات المتجهة للنص القرآني للوصول إلى سر تشكيل بنيته، وظلت على مدى القرون تنهل منه وتستزيد، ولم تنته عجائبه، بل إن مناهج التناول الحديثة أكسبته جدة وظهورا.

وفي هذا المضمار يمضي هذا البحث ليبرز جملة من تقنيات التشكيل للنص القرآني، بغية الوصول إلى المنحى الجمالي الذي يميز البناء التركيبي لهذه النصوص (السور)، ومن ناحية أخرى بهدف الوصول إلى مفاتيح ومداخل لقراءتها، تمكن من إثراء دلالة النص، وإغنائه، وتجديد تناوله.

اعتمدت هذه الدراسة عينة بلغت ثمان من السور القرآنية، قسمت على مستويين: طوال (الأنعام– يوسف– الكهف– مريم)، وقصار (الطارق– العاديات– الفلق– الناس).

وتوصلت الدراسة إلى تقنية خاصة لكل سورة من سور العينة، كتقنية الترابط في سورة" الأنعام"، ومحور الإرادة والمشيئة في سورة "الكهف"، وتقنية الحوار في سورة "يوسف"، والكلمة المفتاح في سورة "مريم"، وموسيقى الفواصل في "الطارق"، وتقنية التقابل في "العاديات"، والتجانس الاستهلالي والخلفي في "المعوذتين".

The structure of the Quranic text Construction techniques and the richness of significanc reading in a sample of the Quranic Surahs

Abstract

Studies aimed at the text of the Koran seek to reach the secret to form its structure, and has been over the centuries to draw from him and increase, and did not end his wonders, but that modern approaches to approach earned him Renewed and the emergenc

In this regard, this research goes on to highlight a number of modulation techniques for the structure of the Qur'anic text, in order to reach the aesthetic aspect that characterizes the structural structure of these texts (the surahs). On the other hand, in order to access the keys and entries to read them, it was able to enrich the significance of the text, enrich it, and renew its handling.

This study adopted a sample of eight Quranic Surahs, divided into two levels:long Surahs (Al-An'am - Joseph - Cave - Mary), and short Surahs (Tariq - Adiyat - Falaq - An'ass).

study found various techniques for each Surah of the The sample Surahs, such as the interconnection technique in Surat Al-An'am, the axis of God willing in Surat Al-Kahf, the technique of dialogue in Surat Yusuf, the key word in Surat Maryam, and the Quranic breaks music in Al-Tariq. , And the technique of Balance in the " Adiyat ", and the introductory and backward homogeneity in the "Maaudatin".

المقدمة:

لكل نبي معجزة تدل على نبوته، وتثبت رسالته، يؤيده الله بها، ويخرس بها ألسنة المكذبين، ويصفع بها جبروتهم وطغيانهم، ويدفع بها تخرصاتهم، ويحقر بها تعاليهم على أنبيائهم. وكانت معجزة كل نبي تأتي من جنس ما برع به قومه، ولما كان العرب يتباهون بالفصاحة والبلاغة، فيتبارون بالأشعار في أسواقهم ومنتدياتهم ويعلقون المعلقات في جوف الكعبة، وبرعوا في الخطابة والسجع.. لما كانوا كذلك فقد جاءت معجزة نبينا محمد ﷺ من جنس ما برع به قومه، فكان هذا الكتاب العظيم (القرآن) معجزة المعجزات، الخالد أبد الدهور والأوقات، فجاء القرآن الكريم المعجزة الخاتمة للنبي الخاتم:

(حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته "قرآنًا عربيًا" لقوم يعلمون) (فصلت ١،٢،٣) وما أسرع ما ظهر إعجازه، تأثيراً في النفوس، وأثراً في القلوب، وروعة في الأسماع، فشُد إليه المؤمنون، وشُدِه به الكافرون، وظهرت دهشة العرب أمام روعة بيان القرآن، فخلدت السير ذلك الأثر الذي كان يتركه القرآن فيهم، كافرهم قبل مسلمهم، ومن ذلك ما روي عن الوليد بن المغيرة، وأبي ذر الغفاري، وعمر بن الخطاب وغيرهم من الحكايات المبينة لتأثيره قديمًا وحديثًا وعلى مدى الدهور[١].

يتغيا هذا البحث المساهمة في إبراز بعض من نواحي الإعجاز التي تضمنتها بنية هذا الكتاب الخالد في جانبها الأسلوبي التركيبي أو الدلالي، وسيقتصر على هندسة البناء على مستوى السور– عينة الدراسة– . سيعرض البحث جملة من التقنيات في أربع من السور الطويلة: كتقنية الترابط في سورة "الأنعام"، ومحور الإرادة والمشيئة في سورة "الكهف"، وتقنية الحوار في سورة "يوسف"، والكلمة المفتاح في سورة "مريم". وأربع من السور القصيرة: مثل موسيقى الفواصل في "الطارق"، وتقنية التقابل في "العاديات"، والتجانس الاستهلالي والخلفي في "المعوذتين".

وتتحدد مشكلة هذا البحث: في أن لكل سورة من سور القرآن الـ(١١٤) تقنية خاصة في بنائها، قد تقترب من سواها كثيرًا أو قليلاً، لكنها تظل ذات سمة خاصة تميزها عن غيرها، وتتميز بها عن غيرها. ويكمن التحدي أمام القارئ في كشف ذلك، فقد تلمح هذه التقنية من أول استقراء، وقد تحتاج إلى الكثير من الإمعان والتأمل قبل أن يتم الاهتداء إليها.

وتعد هذه "الهندسة البنائية" للسورة أحد أركان الإعجاز فيها، وليس كل الإعجاز، لكنه من الأهمية بمكان، إذ بغير التمكن من الوصول إليه والاهتداء له تظل مناحي الإعجاز الأخرى متفرقة، فكأنه الرابط الذي يمكن من خلاله نظم أجزاء العقد الفريد. وما يستقر لدى دارس ما، ربما استقر غيره لدى دارس آخر، وهذا وذاك هو دليل ثراء الإعجاز في النص القرآني ككل. ومما يزيد من درجة أهمية هذه القراءة هو عدم اقتصار التكنيك على نمط معين، بل يتعدد ويتنوع، فلربما أخذ منحى موضوعياً كقيمة معينة أو شعور ما، أو عاطفة خاصة، أو قضية عقدية أو جملة منها أو بعضها. وربما اعتمد البناء الأسلوبي، أو الموسيقي، أو

[١]– انظر: الخضري، محمد (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م). نور اليقين في سيرة سيد المرسلين . ط٥، ص ٦١ ، ٦٢، دار ابن كثير: دمشق، بيروت.

التصوير، وقد يتشكل في إطار كلمة محورية لتكون هي "الكلمة المفتاح". وهنا تتجلى أهمية هذا البحث في أنه يحاول الوصول إلى بعض أسرار بناء التركيب القرآني المعجز، وكشف دور هذا البناء في إغناء الدلالة.

حُددت عينة الدراسة في ثمان من السور القرآنية: أربع سور طويلة هي (الأنعام– يوسف – الكهف– مريم)، وأربع من السور القصيرة هي (الطارق– العاديات – الفلق – الناس).

تستخدم الباحث المنهج الفني المعتمد على الوصف والتحليل، كما استخدم المنهج الاستقرائي للوصول إلى بنية النص القرآني وأسرار بنائه، وثراء دلالاته، مستخدمًا الكثير من معطيات البحث االعلمي، ووسائله في التحليل الجمالي للنص واستكناه دلالاته، أو التتبع الإحصائي للأعداد بهدف الوصول إلى نتائج واقعية منطقية تدعم الفرضيات وتؤكدها.

وقد اقتضت طبيعة البحث وخطته تقسيمه إلى: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه وسؤاله الذي يتغيا البحث الإجابة عليه، وعينة الدراسة، والمنهج المتبع في تناوله، ثم محتواه الذي أخذ التقسيم الآتي:

المبحث الأول: تقنيات التشكيل في بنية السور الطويلة ومفاتيح القراءة

المبحث الثاني: البنية التركيبية في السور القصيرة وإثراء الدلالة

واختتم البحث بخاتمة تضمنت أهم نتائجه وتوصياته. ويمكن تناول ذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: تقنيات التشكيل في بنية السور الطويلة ومفاتيح القراءة

أولا: تقنية الترابط في سورة "الأنعام"[1].

سورة الأنعام "١٦٥" آية، تتوزع آياتها على ثلاثة محاور:

الأول: لفت الأنظار إلى نعم الله العظيمة وفضله الجزيل، وقدرته في خلقه.

---

١)– وتدخل سورتي " الإسراء " و " ق " في إطار هذا التكنيك . انظر: وجوه من الإعجاز البلاغي : مصطفى الدباغ، مكتبة المنار –الزرقاء –الأردن، ط / ١٩٨٢م. ص ٣٦ – ٤٠ .

وانظر: التناسق الموضوعي والبنيوي في قصة لقمان في القرآن الكريم : د . خليل رجب حمدان الكبيسي ، مجلة الباحث الجامعي، جامعة إب ، ج . ي ، العدد الرابع ، السنة الرابعة – ٢٠٠٢م

وانظر : بناء الترابط في سورة البقرة ، من خلال الوحدة العضوية في السورة والتي قسمت إلى: مقدمة – خمسة أغراض – خاتمة، في كتاب : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم: د . السيد تقي الدين، ج١ – ص١٨٣، نهضة مصر للطباعة – القاهرة، (د . ت). وبنى أحدهم سورة البقرة على مقصود أعظم هو "الإيمان بالغيب " وعلى رأسه البعث وعالج كل قضايا السورة في ضوء ذلك .

(انظر: من بلاغة القرآن في آيتي الدين والرهان: د .سعيد جمعة، مكتبة الآداب – القاهرة ، ط / ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م – ص ١٧)، وانظر للمزيد من التعرف على ما ذكر من هندسة بناء سورة البقرة:

النبأ العظيم .. نظرات جديدة في القرآن الكريم: د. محمد عبد الله دراز – ص١٦٣ طبعة دار الثقافة – الدوحة – قطر – ١٤٠٥هـ.

منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة: محمود توفيق – ص ١٣٧، مطبعة الإخوة الأشقاء – مصر (د . ت).

القرآن والمنهج العلمي المعاصر: عبد الحليم الجندي، ص٢٣، دار المعارف – القاهرة – ط١ / ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" (آية١).

الثاني: محاججة وجدل، يعرض الله فيه أقوال المكذبين والكافرين وشبهاتهم، ثم يعلم رسوله ﷺ كيف يرد عليهم. "وقالوا لولا أنزل عليه ملك. ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون" (آية ٨ ، ٩).

الثالث: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بقص سير الأنبياء السابقين وتكذيب قومهم لهم، وتحقير شأن المكذبين وأمر رسوله بعدم الاكتراث بهم.

"ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" (آية١٠).

يتضمن المحور الأول = ٢٦ آية (التذكير بالنعم)

يتضمن المحور الثاني = ٩٦ آية (المحاجة والجدل)

يتضمن المحور الثالث = ٤٣ آية (التسلية للرسول)

ولكي يكون هناك إعجاز اقتداري؛ فإن آيات السورة الـ(١٦٥) لم تتوزع على المحاور الثلاثة على نسق التتابع، بحيث تكون على هذا النسق الافتراضي (مثلاً):

آيات المحور الأول = من آية (١ – ٢٦)

آيات المحور الثاني = من آية (٢٧ – ١٢٢)

آيات المحور الثالث = من آية (١٢٢ – ١٦٥)

إذ لو كانت كذلك لما كان تكنيك "الترابط" هو هندسة بنائها[1]، لكنها تشكلت على نسق تبادلي، فتداخلت محاورها الثلاثة على اختلاف معالجاتها في إطار واحد، على مستوى المقطع الواحد، ثم على مستوى السورة كلها. ولنأخذ مثلاً على ذلك الآيات العشر الأول من السورة لنجد أنها توزعت على الثلاثة المحاور كما يلي:

المحور الأول (التذكير بالنعم) = الآيات (١– ٣) = ٣ آيات

المحور الثاني (المحاجة والجدل) = الآيات (٤ – ٩) = ٦ آيات

المحور الثالث (التسلية للرسول) = الآيات (١٠) = ١ آية واحدة.

وهكذا تتساوق الثلاثة المحاور في أنساق السورة ومقاطعها في اندماج عجيب، وتراتب سلس لا تحس معه بفجاءات نقله، ولا اضطراب فجوة.

وبعملية إحصائية يمكن توزيع آيات السورة الـ(١٦٥) على المحاور الثلاثة كما يلي:

(١)– يقول الدكتور: فؤاد البنا: "ورغم أن بعض السور المدنية فيها آيات مكية في مقابل وجود آيات مدنية في السور المكية غير أن الوحدة الموضوعية تظهر بوضوح" . إيجاز البيان في إعجاز القرآن – ص٤٢، طبع المبدعون – تعز – اليمن (د . ت).

المحـور الأول: (نعـم الله وفضـله) (٢٥ آيـة)، وهـذه أرقامهـا:[(١-٣)، (١٣)، (٥٩-٦٥)، (٧٣)، (٩٥-٩٩)، (١١٨-١٢٢)، (١٤١-١٤٢)، (١٦٥)].

المحـور الثـاني: (المحاجـة والجـدل) (٩٨) آيـة: [(٤- ٩)، (١١-١٢)، (١٤-٢٠)، (٢١-٣٢)، (٣٧-٤١)، (٤٦ – ٥٠)، (٥٦- ٥٨)،(٦٦- ٧٢)، (٧٤ – ٨٣)، (٩١ – ٩٣)، (١٠٠- ١٠٢)، (١٠٩) ، (١١٤)، (٢٤- ١٢٧)، (١٣٠- ١٣١)، (١٣٦- ١٤٠)، (١٤٣- ١٦٤)].

المحور الثالث: التسلية للرسول (٤٢آية):

[(١٠)، (٣٣ – ٣٦)، (٤٢- ٤٥)، (٥١- ٥٥)، (٨٤ – ٩٠)، (٩٤)، (١٠٣- ١٠٨)، (١١٠ – ١١٣)، (١١٥- ١١٧)، (١٢٣)، (١٢٨- ١٢٩)، (١٣٢- ١٣٥)].

الترابط على المستوى التركيبي:

ويأتي المستوى التركيبي ليعزز هذا الترابط الموضوعي: إذ بعملية إحصائية لأساليب كل محور من المحاور الثلاثة تبرز لنا ملامح الترابط على مستوى الألفاظ والتراكيب، حيث تنتشر أساليب وألفاظ كل محور في ثنايا السورة كلها؛ ففي المحور الأول (نعم الله وقدرته): تظهر الإحصائية التالية لألفاظ وتراكيب تتعلق بنعم الله وفضله:

- هو / فهو / وهو = ٣١ تكرارًا
- الحمد لله / إن الله / وله = ٤ تكرارات

مجموع (٣٥) تكرارًا؛ وهذه التكرارات تتوزع في ثنايا السورة كلها.

في حين أن المحور الثاني (المحاجة والجدل)[(١)]: تبرز بعض الأساليب المتعلقة بهذا المحور، وتبرزها الإحصائية التالية:

قال / وقال / لقال	= ١٥	تكراراً
وقالوا / فقالوا / قالوا / إذ قالوا	= ١٢	تكراراً
أن تقولوا / أو تقولوا / يقول / وليقولوا / سيقول / يقولون	= ٦	تكرارات
قل	= ٤٠	تكراراً
قل / ولا أقول	= ٣	تكرارات
وهم / ولو	= ٧	تكرارات

بمجموع (٨٣) تكرارًا؛ وهي تتوزع في ثنايا السورة كلها.

بينما في المحور الثالث (تسلية الرسول): نلحظ تردد ألفاظ وأساليب متعلقة بهذا المحور، وتوضحها الإحصائية التالية:

(١) أحصى الأستاذ: محمد الغزالي في سورة الأنعام "٤٤ " قولاً أُمر الرسول بترديدها، انظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق – القاهرة، ط / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م – ص ١٠٧.

قد / فقد / ولقد = ٩ تكرارات

فإن كذبوك / وما / ويوم = ١٠ تكرارات

قل أرأيتم / قل أرأيتكم / انظر / ولو ترى = ٦ تكرارات

بمجموع (٢٥) تكرارًا؛ وهي كسابقاتها تتوزع السورة كلها.

والمحاور الثلاثة في السورة كل واحد منها يسوق للآخر ويرتبط به. فاستعراض نعم الله وقدرته يسوق إلى محاججة الكافرين والمكذبين ومجادلتهم. ومجادلتهم ومحاججتهم تسوق إلى تسلية الرسول والتخفيف عنه مما يجد من آثار هذا التكذيب وهذه المجادلة.

وكل هذه الموضوعات صيغت بلفظ الخطاب في السورة كلها وهو ما يوضح ذلك الترابط الفني اللغوي، والوحدة الموضوعية في السورة كلها:

ابتداءاً: "هو الذي خلقكم من طين ...." (آية – ٢)

وانتهاءً: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ...." (آية – ١٦٥– ختام السورة).

ثانيًا: تقنية الحوار في سورة "يوسف":

تقوم سورة "يوسف" على تكنيك "الحوار"، ذلك لأن بناءها قصصي، ومن ثم كان "الحوار" هو الرابط الأساسي لأحداثها ومجرياتها، وقد تضمنت السورة ثمانية مشاهد حوارية:

المشهد الأول : يوسف وأبوه

المشهد الثاني : يوسف وإخوته وأبوهم

المشهد الثالث : يوسف مع السيارة وفي بيت الملك

المشهد الرابع : يوسف وامرأة العزيز

المشهد الخامس : امرأة العزيز والنسوة

المشهد السادس : يوسف وأصحاب السجن

المشهد السابع : الملك والرؤيا والبراءة

المشهد الثامن : يوسف وإخوته.

وتشيع فيها ألفاظ وأساليب الحوار ابتداءً: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين" (آية ٥).

وانتهاءً: "ورفع أبويه على العرش وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً" (آية١٠٠).

وبعملية إحصائية لألفاظ "القول" الواردة "في المشاهد الثمانية نجد أنها بلغت "٧٥" لفظًا حواريًا: (قال– قالوا – قالت – .....).

وبمقارنة هذا العدد مع ما ورد في سورة "البقرة " التي هي أكبر بكثير من سورة يوسف يتبين صحة ما ذهبنا إليه من أن تكنيك هندسة بناء السورة هو "الحوار".

السورة	عدد آياتها	صيغ الحوار فيها	مشاهد الحوار
البقرة	٢٨٦	٥٠	١٢
يوسف	١١١	٧٥	٨

وحتى لو قارناها بمثيلتها في البناء القصصي وعدد الآيات وهي سورة "الكهف" فإنه يتأكد استقلال سورة " يوسف" بهذا التكنيك.

السورة	عدد آياتها	صيغ الحوار فيها
يوسف	١١١	٧٥
الكهف	١١٠	٣٧

ثالثًا: سورة "الكهف" ومحور الإرادة والقدرة والجزاء[1]:

تدور مجريات السورة حول محور المشيئة والقدرة الإلهية، ومنها تنطلق هندسة بناء السورة، وتتضافر السياقات الدلالية والتركيبية في خدمة محور البناء الهندسي المذكور. وباستعراض وصفي بسيط للسورة سيكشف لنا هذا التكنيك البنائي:

تبدأ السورة بحمد الله على إنزاله القرآن "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا" وهو حديث عن القدرة على "إنزال الكتاب".

"إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جُرزا "(٧، ٨)، وهي تحكي قدرة الله على إحياء الأرض والزرع وإماتتها.

"أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً" (٩) فلا عجب من قدرة الله على إماتتهم تلك السنوات الطوال ثم إحيائهم، إنها مشيئته وقدرته:

"فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا" (إماتة) (آية ١١).

"ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا" (إحياء) (آية ١٢).

"ولا تقولن لشيءٍ إني فاعل ذلك غدا إلا إن يشاء الله" (آية ٢٣ ، ٢٤). فالمشيئة مشيئته وحده.

"لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا" (آية ٢٧)

"وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" ومن يخالف مشيئة الله له فيكفر فإن الله قد أعد لهم "نارًا أحاط بهم سرادقها..." ومن وافق مشيئته فآمن فـ "أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ...." (آيات٢٩– ٣١).

"واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا[2] لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا" (٣٢) في إطار المشيئة والقدرة أعطاه، وفي إطار المشيئة سيسلبه: "وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا" (آيات٤٢– ٤٤).

ولو كان قدم مشيئة الله واعترف بقدرة الله ونعمه ما سلب:

"ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ..." (آية ٣٩).

"واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا" (آية ٤٥). (القدرة على العطاء والأخذ).

"ويوم نسير الجبال ..، وعرضوا على ربك صفا..، ووضع الكتاب" (الأيات ٤٧–٤٩).

(مظاهر من قدرة الله في اليوم الآخر).

---

[1]- درس الشيخ محمد متولي الشعراوي سورة الكهف من وجهة نظر أخرى لكنها تلتقي مع هذه الدراسة في محور المشيئة انظر: معجزة القرآن الكريم– ص ١٧٧، دار العودة – بيروت، ط ١٩٨٩م.

[2]- تتكرر هذه الصيغة "جعلنا" بشكل ملحوظ وبصورة متعددة، وهو ما يؤيد محورية هندسة السورة حول موضوع القدرة والمشيئة.

"... إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا" (آية ٥٧)

(قدرته على طمس قلوب المعرضين عن ذكر الله).

"وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤيلا". آية(٥٨) (قدرة الله تسير على موعد وميقات).

"وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا"(٥٩).

(قدرته على إهلاك الطاغية، في الوقت الذي يريد).

"فوجدا عبدًا من عبادنا أتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علما، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال ستجدني إنشاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرا، قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكرا" (الآيات ٦٥-٧٠) (قدرة الله على تعليم مراده وإعطاء مشيئته لمن يشاء من عباده يسيرون بها في الناس ولا يفهمها حتى الأنبياء).

"قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا" (٧٧) "قال هذا فراق بيني وبينك"(٧٨)؛ (لما لم يفهم أن المشيئة مشيئة الله وظنّ أن العبد الصالح يسير بمشيئته كان الفراق).

" ... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا"(٧٩) (مشيئة الله في إنقاذ سفينة القوم المساكين بإعطاب السفينة).

"وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما"(٨٠، ٨١) (مشيئة الله في إنقاذ الأبوين بإهلاك ابنهما).

"... فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما" (٨٢).

".... رحمة من ربك، وما فعلته عن أمري ..."(٨٢). (فالأمر أمره والمشيئة مشيئته).

"إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سببا"(٨٤) (أعطى الله ذا القرنين قدراً من قدرته وإرادته فسار بها في الناس بأمر الله ومراده).

"قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا"(٨٦) "قال أما من ظلم فسوف نعذبه.. وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى.."(٨٦-٨٨) (تنفيذ مراد الله وقدره، وقدرته على المجازاة للمحسنين والمسيئين).

"ثم أتبع سببا" (٩٢) (حسب ما آتاه الله من أسباب).

"قال ما مكني فيه ربي خير..." (٩٥) " قال هذا رحمة من ربي...." (٩٨) (فمرد الأمور كلها لمشيئته وعطائه).

"فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا"(٩٨) (القدرة على الإهلاك في الموعد المحدد).

"فجمعناهم جمعا"(٩٩) (القدرة على إعادتهم للحساب).

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا" (١٠٩) (أوامر الله وأقداره في خلقه ومشيئته لا حد لها ولا انتهاء). وبهذا يتضح كيف يخط التركيب واللفظ هندسة البناء القرآني في هذه السورة.

رابعًا: الكلمة "المفتاح" في سورة "مريم"

سورة "مريم" تحتوي "٩٨" آية، تقوم هندسة بنائها على كلمة واحدة، تشيع في ثنايا السورة، وتتخلل أنساقها.

تبدأ السورة بعرض قصة نبي الله "زكريا"، بعد افتتاحها بخمسة من الحروف المقطعة "كهيعص"، وفي الآية الثانية تبدأ ملامح هندسة البناء في السورة، "ذكر رحمة ربك عبده زكريا". ثم تمضي السورة حاكية حال "زكريا" وهو يعيش تحت ضغط انقطاع ذكره في الدنيا، وقد شارف على الخروج منها، إذ بلغ من الكبر عتيا، وعدم تمكنه من الإنجاب نظرًا لكون امرأته عاقراً، وتصف تذلله ووهن عظمه، ثم شكواه إلى الله ودعاءه أن يرزقه الولد الذي يواصل حمل ميراث آل يعقوب.

وهنا تأتي"الرحمة" المذكورة أول السورة، لتبشر زكريا بيحي "إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا". ينتقل السياق لسرد قصة "مريم" تلك "الصديقة" التي هجرت صخب الحياة لتتفرغ لعبادة ربها فكان أن وهبها الله ما تحلم به كل أنثى، وفي الوقت ذاته تحققت رغبة أمها التي كانت قد نذرت ما في بطنها محررًا لله فجاءت "مريم" (عليها السلام)، ومنها جاء نبي الله عيسى: "آية للناس و"رحمة" منا وكان أمرًا مقضيا".

"رحمة" الله لم تظهر فقط في منحها الولد، ولكن تبدت أيضًا في براءتها بإنطاق الصبي بعد أن بلغ منها التوتر مبلغه حتى تمنت الموت، كما تبدت في ذلك الطعام والشراب الذي تيسر لها وهي في حالة "المخاض".

وما قصة إبراهيم عن هذا السياق ببعيد، بل تشيع في جوّها الرحمة، ابتداءً بالخطاب الرقيق الذي تتابع بذاته في أربعة أنساق والمعبر عن رحمة إبراهيم بأبيه، ورغبته في إنقاذه، وخوفه من وقوعه في النار "يا أبتِ .... يا أبتِ .... يا أبتِ ..... يا أبتِ ..... ".

ويتجلى أكثر "برحمة" الله لإبراهيم بمنحه "الذرية" وقد كان عديمها على منوال من سبقه في السرد، ويكاد وضعه أن يكون شبيهاً بزكريا، ومن ثم وجزاءً له وشكراً له على هجره لعبادة قومه وفيهم أبوه، كافأه الله بوصل نسله بإسحاق ويعقوب ومن بعدهم "ووهبنا لهم من "رحمتنا" وجعلنا لهم لسان صدق عليا".

وفي المشهد الرابع ترد قصة "موسى" وتتبدا حاجته لمن يعينه في موقف الدعوة لمجابهة طاغوت العصر"فرعون"[٢]، فتتجلى "رحمة" الله بادية "ووهبنا له من "رحمتنا" أخاه هارون نبيا".

(١)- كما جاء في سياقات أخرى من القرآن.

يتضح من هذه السياقات أن "الرحمة" هي سر تقنية البناء الهندسي للسورة، وهي "مفتاح" قراءة هذا النص الكريم من "سورة مريم"[١].

ومن ثم يمكن تفسير الكثير من الظواهر التي أسهمت بفعالية في هذا التشييد، ومن ذلك ما يلي:

١- ظاهرة شيوع كلمة الرحمة والرحمان في السورة ابتداءً من آية(٢) وانتهاءً بالآية (٩٦) (آيات السورة ٩٨ آية) في عشرين تكراراً[٢].

٢- ظاهرة ورود مرادفات "الرحمة" أو متعلقاتها ومن ذلك:

- الحنان: "وحناناً من لدنا .. ".
- بر الوالدين: "وبراً بوالديه"، "وبراً بوالدتي".
- طاعتهما: "ولم يكن ... عصياً".
- الرفق واللين: "ولم يكن جباراً ..."، "ولم يجعلني جباراً شقيا"
- السلام: "وسلام عليّ .."،" والسلام عليّ ."" قال سلام عليك"
- الاستغفار للأب: "سأستغفر لك ربي".
- جو البكاء ورقة القلوب: "خروا سجداً وبكياً".

٣- شيوع جوّ "الرحمة" في سياقات السورة من خلال لغة الحوار:

حوار يحيي مع أبيه.

حوار عيسى مع أمه.

حوار إبراهيم مع أبيه.

حوار زكريا مع ربه.

٤- "الرحمة" تستدعي"الرحم"، ومن ثم برزت "الرابطة الأسرية" بين شخصيات السورة:

- رابطة الأبوة: زكريا ويحيي/ إبراهيم وأبوه.
- رابطة البنوة: مريم وعيسى.
- رابطة الأخوة: موسى وهارون.
- رابطة القرابة: يحيي وعيسى (أبناء الخالة).
- رابطة الأسرة: إسماعيل وأهله

٥- ذكرت السورة "١٣" شخصية، تربطها ببعضها علاقات الرحم البعيدة والقريبة، الرابطة الأولى من لدن آدم ونوح وإبراهيم، والعلاقة القريبة من أبوة وأخوة وغيرها، وهم: (آدم- نوح) (إبراهيم- إسحاق- يعقوب-

---

[١]- لكلمة المفتاح في دراسة سورة (ص) "الخصومة"، انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي- ص٥٥، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط ١/ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

[٢]- (رحمة ربك – رحمة منا – رحمتنا – الرحمن).

إسماعيل) إدريس (موسى– هارون) (زكريا– يحي– عيسى– مريم)."أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً".

٦– البناء التركيبي خدم موضوع القرابة والرحم فجاءت التراكيب متقاربة البناء مع كل من عرضت السورة لقصته:

"ذكر رحمة ربك عبده زكريا".

"واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا"

"واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا".

"واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا"

"واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً"

"واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا".

وتقارب البناء ساق إلى تقارب الاستفسار:

- "قال رب أنى يكون لي غلام ....."
- "قالت أنى يكون لي غلام ....."

وتقارب السرد:

- "قال كذلك قال ربكَ هو عليّ هين ...."
- "قال كذلكِ قال ربكِ هو عليّ هين ...."

وتقارب البشارة :

- "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي ... "
- "إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا "

وتقارب الاستجابة :

- "فخرج على قومه ...."
- "فأتت به قومها ....."

ووحدة الأمارة:

- "ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا "
- "إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا "

ووحدة الإشارة:

- "فأوحى إليهم ..."
- "فأشارت إليه ..."

ووحدة الدعاء:

- "وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا"[١].
- " والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا"

في مقابل مواقف الرحمة والتعامل معها في الجزء الأول من السورة، يبرز مضاد "الرحمة" في الجزء الأخير من السورة عند ذكر المكذبين، والمتقولين على الله، والذين قالوا اتخذ الله ولدا.

يلحظ تحول الفواصل تبعًا لتحول الخطاب من خطاب الرحمة إلى خطاب الغضب فبعد أن كانت الفاصلة "الياء المشددة" (زكريّا– وليّا – منسيّا) صارت "الدال" المشددة والألف (لدّا – عدّا – مدّا) أو الدال المفتوحة والألف وهي قليلة.

لوحظ تحول آخر في الفاصلة قبل هذا، لكنه تحول جزئي عند نهاية سرد قصة عيسى، والتعليق على مجرياتها ونفي اتخاذ الله له ولدا، فتحولت نبرة الخطاب إلى العقل بدلاً من خطاب العاطفة فيما قبله: "ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون " فصارت الواو والنون .. أو الياء والميم (مستقيم/ عظيم) بدلاً من الياء المشددة والألف "نبيا" في سبع آيات محكمات، ثم يعود النغم السابق للفواصل من جديد عند سرد بقية القصص.

سايرت الفواصل "اليائية" المرحلة الانتقالية للتحول من "الرحمة" إلى السخط، في تسع آيات (من ٦٦– ٧٤)، حتى إذا ما بلغت أوج الانفعال تحولت إلى الدال المشددة أو المفتوحة "وقالوا اتخذ الله ولدا، لقد جئتم شيئاً إدّا، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا" وتؤازر الدال "الزاي" في تبادل محبب وإن كان قليلاً.

المبحث الثاني: البنية التركيبية في السور القصيرة وإثراء الدلالة

أولا: سورة "الطارق" وهندسة الفواصل:

السورة مكونة من "١٧" فاصلة، على التنسيق التالي:

[الطارق/الطارق/الثاقب/حافظ/خُلق/دافق/الترائب/قادر/السرائر/ ناصر/ الرجع/الصدع/ فصل/ هزل/ كيدا / كيدا/ رويدا]، ويتضح أن المرونة سائدة في نظام الفواصل هنا، فلم تأت على روي واحد[٢]، ولا على اثنين بل جاءت على سبعة حروف روي: (ق / ب / ظ / ر / ع / ل / د). ويكاد المطالع يتيه في تكنيك بنائها، إذ يمكن إرجاعها إلى النظام الأحادي، والثنائي، والثلاثي [أحادي (٣)، ثنائي (٤)، ثلاثي(٢)] فتصير تسع مجموعات على النسق التالي: (في حال تم التنسيق حسب تسلسل الآيات وحرف الروي).

---

١)- جاء في الدعاء ليحي بضمير الغائب، كوننا نقرؤه بعد موته، وجاء بضمير المتكلم مع عيسى كونه ما زال حياً لم يمت، وهوإعجاز تعبيري.

٢)- أورد الدكتور / عبد الصبور شاهين جدولاً بحروف الروي في فواصل سور القرآن كلها. وذلك في كتابه: حديث عن القرآن – ص١٥٠– ١٥٨، إصدار دار أخبار اليوم– قطاع الثقافة – القاهرة، عدد ديسمبر ٢٠٠٠م.

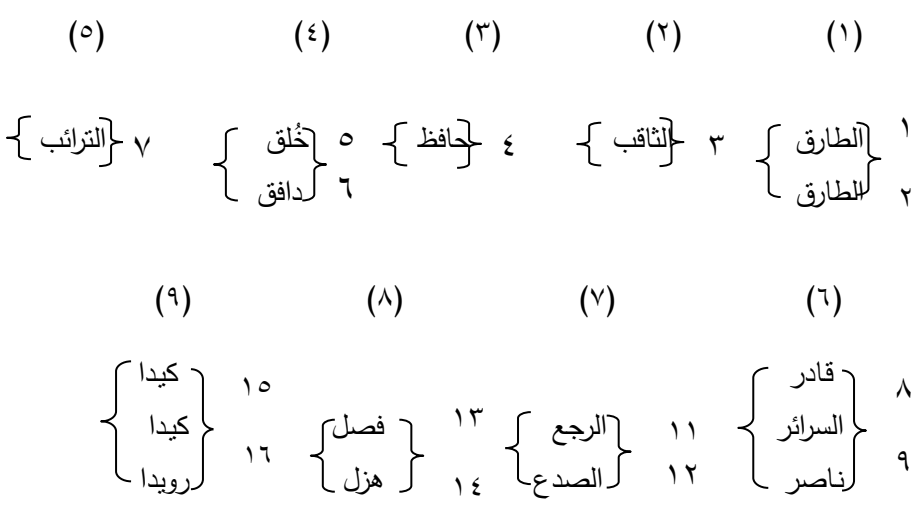

أو هكذا: (على غير تسلسل الآيات) فتكون ثمان مجموعات:

الفردي: (١) { حافظ }

الزوجي: (٥)

{ الطارق، الطارق } { الثاقب، الترائب } { خلق، دافق } { رجع، صدع } { فصل، هزل }

(٢)

{ قادر، السرائر، ناصر } { كيدا، كيدا، رويدا }

أو هكذا: (بحسب الميزان الصرفي) فتكون خمس مجموعات بما تبثه من نغم إيقاعي:

(١) طارق– طارق– ثاقب– حافظ – دافق – قادر– ناصر (٧) اسم فاعل

(٢) الترائب– السرائر (٢) فعائل

(٣) خُلِقَ (١) فُعِل مبني للمجهول

(٤) رجع – صدع – فصل – هزل – كيد(ا) – كيد(ا) (٦) فعل– مصدر

(٥) رويدا (١) اسم فعل أمر(فُعيل)

إذن هناك ثراء في تقنيه بناء الفواصل إذ أن في كل نمط منها مدخلاً قرائياً مستقلاً بذاته يمكن قراءة النص ودراسة تكنيكه من خلاله، وثلاثة أنماط لبناء الفواصل تعطى غنى أكبر في دراسة النص للباحثين وأثراً أعظم في المتلقي.

فإذا أضفنا إلي ما سبق، قراءةً أخرى للفواصل في حاله الوصل فإننا نظفر بتشكيل رابع يتكون من ست مجموعات موسيقية:

١- الضمة : الطارقُ ، الثاقبُ ، السرائرُ (٣ فواصل)
٢- الكسرة : والطارقِ، الترائبِ ، الرجعِ ، الصدعِ ، الهزلِ (٥ فواصل)
٣- الفتحة : خُلِقَ (واحدة)
٤- التنوين بالضم : حافظٌ ، قادرٌ ، فصلٌ (ثلاث)
٥- التنوين بالفتح : كيداً ، كيداً ، رويداً (ثلاث)
٦- التنوين بالكسر : دافقٍ ، ناصرٍ (اثنتان)

فكل الحركات توفرت في فواصل السورة مفردة أو منونة، وهذا ثراء وتنوع على المستوى الصوتي.

يلفت نظرنا هذا الثراء في فواصل السورة إلى التفكير في أن تكون الفواصل هي مفتاح سر تقنية بناءالسورة ولكي نطمئن إلي هذا المذهب أكثر، يلزم استطلاع الجانب الموضوعي للسورة وقضاياها المعروضة.

تبدأ السورة بالقسم: "والسماء والطارق" على نمط ثلث سور جزء عم تقريباً[١].

ولأن الطارق مجهول ويحتاج إلي إيضاح، فقد تم التعريف به "النجم الثاقب" ويأتي جواب القسم "إن كل نفسٍ لما عليها حافظ "، ثم تستمر السورة في عرض جملة من القضايا والموضوعات على الترتيب التالي:

التفكر في أصل خلق الإنسان.

عرض الحقيقة العلمية لتكوين الإنسان وخلقه.

قدرة الله على بعث الإنسان بعد موته.

قدرته أيضاً على إظهار كل أعمال الإنسان ذلك اليوم.

لا قوة للإنسان ولا ناصر له في ذلك اليوم.

عرض حقيقة علمية تتعلق بمصدر الأمطار والقسم بها.

عرض حقيقة أخرى تتعلق بعملية الإنبات والقسم بها.

يقسم الله أن القرآن حق.

يوضح أن الكافرين يكيدون للرسول والله يكيد لهم.

الله يمهل الكافرين ثم يأخذهم.

هذه إذن عشر قضايا عرضتها السورة، وبإضافة المطلع الذي عالج قضيتين، تصير أمامنا اثنتا عشرة قضية طرحتها السورة. والسورة مكونه من "١٧" آية، و حين نوازن بين عدد الآيات هذا (١٧)، وعدد الموضوعات المطروقة به (١٢)، سنلحظ غنىً آخر في الجانب الموضوعي/الدلالي.

(١)- "١١"سورة من "٣٧"سورة من جزء عم تبدأ بالقسم. كما أن الملاحظ أن الله عز وجل أكثر من القسم في السور المكية" لأن أهل مكة أنكروا الوحي وقاوموا الرسالة، فكان مقتضى الحال يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ" انظر: القرآن معجزة التاريخ: د .عبد الله شحاته – ص ١٦٨، دار مايو الوطنية للنشر– القاهرة، (د .ت).

سنرى الآن كيف تعمل الفواصل عملها في هندسة البناء الموضوعي للسورة، والذي سيتضح من خلال هذا العرض:

١- **المقطع الأول:** تبدأ السورة بالقسم، بما يقدمه من إيحاء بأهمية الموضوع المطروق. والأمر متعلق بالسماء، والطارق(١)، وفيها تجتمع الهيبة والرهبة فالسماء مكون عظيم ومحكم ومجهول، كالطارق المجهول تماماً، والذي يساق الاستفسار اللاحق له لكشف الغموض عنه: "النجم الثاقب"، وهذا التعريف بالطارق المجهول، الباعث لمشاعر الرهبة يقوي هذه المشاعر، وينميها، فتتحول إلى نوع من الخوف والتوجس من هذا النجم الثاقب، ومن ثم يأتي التطمين للإنسان بحماية الله له، وبأنه قد وكل به "حافظ".

في هذا المقطع إذن تبرز ثلاث فواصل فاعلة ، قامت بدورها في رسم ملامح هذا المقطع وهي (الطارق، الثاقب، حافظ).

٢- **المقطع الثاني:** في مقابل هذا النجم "الطارق" "الثاقب" هناك الماء "الدافق" الخارج من بين الصلب و"الترائب"، وكما أن "الثاقب" يهبط بجرمه/ أو بضوئه، فتتلقفه الأرض، كذلك هذا "الدافق" يخرج من بين الصلب و"الترائب"، فتتلقفه الرحم، ثم يخرج إلى الأرض، وبعد أن يؤدي دوره يفنى كما يفنى النجم المشع حيث ينتهي دوره فيتلاشى ضوءُه، أو يسقط على الأرض فيتحول إلى صخر ساكن. فالفاصلتان: " الدافق " و"الترائب" عملتا عملهما في بنية النص الدلالية.

٣- **المقطع الثالث:** هذا الفناء للإنسان ليس نهائياً، بل إن الله على رجعه "لقاد"، في ذلك اليوم الذي تظهر فيه المكنونات و"السرائر" حيث لا تكون له قوة ولا " ناصر". ويظهر هنا دور الفواصل الثلاث بجلاء، وأن دورها أساسي في بناء النص وليست تحسينية أو إيقاعية.

٤- **المقطع الرابع:** السماء "ترجع" الماء إلى الأرض، وترجع النجوم، أو ضوءها إلى الأرض، والأرض" تتصدع " بالنبات، وتتصدع بالإنسان "يوم تبلى السرائر"، والأصلاب تتدفق بالماء، والأرحام تستقبل الماء ثم تتصدع بالبشر، كلها تشكيلات من صور متحركة متقابلة ترسمها الفواصل: "الرجع" " الصدع".

٥- **المقطع الخامس:** هذا القول المنزل من السماء قول "فصل"وما هو "بالهزل" فالأمر جد. فالفاصلتان فيهما أبلغ تعبير وأظهره، تخدمه بنية التضاد في الفاصلتين.

٦- **المقطع السادس:** إن المكذبين والكافرين يكيدون لك يا محمد "كيدا" وأنا أكيد لهم "كيدا"، تشابه البنية اللفظية لا يعني بالضرورة المساواة في مستوى القوة، وسنرى كيد من هو الأقوى فلا تعجل فاني إنما أمهلهم "رويدا" لتكون لحظة العقاب حين تأتي ساحقة ماحقة. وبهذا يتبين دور الفواصل في هندسة البناء في هذا النص.

---

(١) هنا استعارة لأن الطارق كناية عن النجم، وحقيقة الطارق هو الإنسان الذي يطرق ليلاً وإنما سمي الآتي بالليل طارقاً لأنه يأتي في وقت يحتاج معه إلى الدق للتنبيه على طروقه .انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية – بيروت، ط١ / ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٢٦.

ثانيا: تكنيك التقابل في "العاديات"

تتكون سورة "العاديات" من جزأين:

الأول: القسم، ويمثله "الخيل" **الثاني:** جواب القسم، ويمثله "الإنسان"

ويتقابل الجزءان: القسم وجوابه، وما يلي يوضح هذا التقابل.

* الصورة الأولى: (القسم)

صورة الخيل كما هي في النص:

الخيل أجمل الأنعام، لكن النص لا يصورها لغرض جمالها كما في مواضع أخرى، بل يرسمها في لحظة انفعال حرونة ضابحة تُسمع أصوات أنفاسها، وتقدح الشرر بحوافرها، تثير النقع، وتضيع وسطه، وتصبح الناس فتزرع الرعب والخوف

الصورة المقابلة لها: (جواب القسم)

صورة الإنسان، بالرغم من كونه أفضل المخلوقات وأحسنها إلا أن الصورة المرسومة له في هذا النص ليست تلك، بل من نوع آخر. إنه ذلك الكنود بكل ما ترسم هذه اللفظة من ملامح التعاسة والبؤس والاكفهرار والازورار والإصرار والعناد "على ذلك لشهيد "وعلى الحرص والطمع والبخل " لشديد"، فالصورتان متقابلتان:

الخيل الضابح والإنسان الكنود، والشرر يقدح من الحوافر، والشر يصدر من الكفور، الخيل تصبح القوم وتغير على ديارهم وأموالهم، والكنود والكفور يجمع ويمنع يحرص ويبخل. هنا نقع يثور، وهناك تبعثر القبور، وهناك جمع الأموال، وإخراج ما في البيوت من غنائم، وهنا تحصيل المكنون من الصدور، وتتقابل التراكيب أيضاً:

في المشهد الأول:

والعاديات ضبحا

فالموريات قدحا فأثرن به نقعا

فالمغيرات صبحا فوسطن به جمعا

في المشهد الثاني:

إن الإنسان لربه لكنود

وأنه على ذلك لشهيد أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور

وإنه لحب الخير لشديد وحصل ما في الصدور

إنُ ربهم بهم يوم إذن لخبير "

ثالثا: سورة "الفلق" و "الناس" والتجانس الاستهلالي والخلفي(١):

* سورة "الفلق" خمس آيات، جاء بناؤها التركيبي مكوناً مما يلي:

١- المستعاذ به. ٢- المستعاذ منه.

تضمن المستعاذ به نسقاً واحداً ، وجاء المستعاذ منه في أربعة أنساق.

* سورة " الناس" ست آيات، جاء بناؤها التركيبي كالفلق، لكنها جاءت متساوية الأنساق بالنسبة للمستعاذ به والمستعاذ منه (ثلاث لكل منها).

- المستعاذ به في "الفلق" "الرب" صفة واحدة لله سبحانه، والمستعاذ منه متعدد (أربعة) وهى:

١- الخلق. ٢- (الليل وما فيه).

٣- السحر. ٤- (الحسد، العين).

وفي "الناس": المستعاذ به ثلاث صفات لله:

١- الرب. ٢- الملك. ٣- الإله.

أما المستعاذ منه فواحد وهو "الشيطان".

جاء البناء التركيبي لتوزيع الأنساق في كل نص ذا دلالة على مستوى الأهمية للمستعاذ منه في السورتين. فعلى الرغم من كون المستعاذ منه متعدداً في "الفلق" (أربعة)، إلا أنه (تركيبياً) ظهر أقل أهمية.

فالتركيب (٤:١) يوحي بأن كل هذه المستعاذ منها (وهن أربع) قد صرفن باستعاذة واحدة. لكن الأمر مختلف في "الناس"، حيث التركيب يبرز أهمية المستعاذ منه وخطورته (٣:٣)، فعلى الرغم من كون المستعاذ منه واحداً، إلا أن الاتكاء على ثلاث صفات لله (الرب، الملك، الإله) في الاستعاذة منه واضحة الدلالة في هذا السياق.

- وبالموازنة بين المستعاذ منه في "الفلق" والمستعاذ منه في "الناس" يتضح الأمر أكثر.

- **في "الفلق":**

- لا يصبن الإنسان مجتمعات. - لا يصبن الناس كلهم.

- خطرهن محدود. - خطرهن مفترض/ محتمل.

- خطرهن موجه لإصابة الإنسان في الدنيا بما يكره

- خطرهن موجه للجسم أو المال أو الولد وليس إلى الدين

- **في "الناس":**

- خطر الشيطان دائم ومحقق. - المعركة مع الشيطان فيها تحدٍ.

- كيده خفي لا يحس (الوسواس). - لا يواجه بل يناور (الخناس).

---

(١)- وانظر دراسة لهاتين السورتين من وجهة نظر أخرى: الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية: محمد بركات حمدي أبو علي– ص ١٥٠ ، دار وائل للنشر، عمان – رام الله ، ط١ / ١٩٩٩م.

– خطره موجه لإصابة الإنسان في دينه. – يسعى لإيصال الإنسان إلى النار في الآخرة

– يريد أن يغضب الله من الإنسان. – يقصد لإغواء الناس قصداً.

– ومن ثم جاء التركيب ليخدم الدلالة، وليوضح حقيقةً مهمة، هي أن خطر "الأربع" في "الفلق" لا يضارع خطر الشيطان وحده في "الناس".

– جاءت التراكيب الثلاثة الأولى في "الناس" لتعزز هذه الخطورة وهذه الأهمية. فالاتكاء على ثلاث صفات لله في الاستعاذة من الشيطان قويٌ في دلالته على إبراز الأهمية والخطورة لوسوسة الشيطان من جهة، وضرورة الاحتماء والاستجارة والاستعاذة منه من جهة أخرى، إضافة إلى ذلك فهي تمنح الإنسان الثقة بحماية (الرب، الملك، الإله).

– فالاستعاذة بالرب تستدعى صفات: الرحمة – اللطف– الحنان– الرفق– الشفقة – الرعاية...

فمن تكون هذه صفات ربوبيته فهيهات أن يُسلم من يلوذ به، وهيهات أن يتخلى عنه.

والاستعاذة بالملك: توحي بالقوة – القدرة – السيطرة – الحماية – الغيرة ..... وهلم جرا.

ومن هذه صفات ملكه فمن الذي يجرؤ على اقتناص من احتمى بجواره

– أما الاستعاذة بالإله فلا مجال معها للتفكير:

فالحاكم للعالمين، والمسيطر على الكون، والمتصرف في أمور الخلق أجمعين والمقدر لكل ما يجري في العالمين، والمدبر لكافة ما يدور في الأرض والسماء، يستحيل أن ينازعه أحد في قدر من أقداره أو أن يحول دون نفاذ أمره وتدبيره، أو أن يعارض تصاريفه. فمن حفظه الله حفظ، ومن حماه حمى ومن استعاذ به أعاذه.

– السورتان رقية من السحر والعين والمس وهما بتراكيبهما على صورتهما تلك محققتان للحماية من كل هذه الشرور، كما أنهما شفاء لما قد يكون أصاب الإنسان من تلك الشرور، فهما وقاية قبلية، ومعالجة بعدية.

*** التجانس في السورتين:**

نلاحظ أنه في "الفلق" يأتي التجانس "الاستهلالي"، وهذا إيحاء بمحور ارتكاز النص:

" .....

من شر.....

و من شر.....

و من شر.....

و من شر..... "

هذا التركيز على تنوع الشرور يعطى الإنسان الرهبة والخشية، ويدفعه إلى ضرورة الاحتماء بالذي خلق الفلق، ومزق ظلام الشفق من هذه الشرور. والذي مزق الأفق بالفلق، وأزاح ظلام الوسق، قادر على حماية هذا الإنسان من هذه الشرور مجتمعة أو منفردة. وهذا الاتساق في التجانس الاستهلالي لأربعة أنساق– هي الأنواع الأربعة المستعاذ منها– يشي بتنوع هذه الشرور، فكل نوع منها له خاصيته وأثره وعرضه وميزته.

فالشر الأول: عام لكل شرور الخلائق: (الجن/الإنس/الهوام).

والشر الثاني: مخصص لما يعرض للإنسان من أذى من بعض العوارض في الليل.

والشر الثالث: الشر الخاص بالسحر والسحرة.

والشر الرابع: شر العين والحسد.

والعلاج بالسورة صالح للأربعة الشرور مضاد لها كلها، لأن القارئ لها يتناولها كلها بالذكر والتلاوة، فأينما كان الداء فقد وقع عليه الدواء، وحصل بإذن الله الشفاء.

* ومن دلالات التجانس "الاستهلالي" هذا، أنه يؤكد لنا صدق حقيقة هذه الأنواع من الشرور وواقعيتها، حتى لا يظل مجالاً للشك فيها وفي صدق حدوثها.

* كما أنه يؤكد أنها كلها من أنواع الشر، وليس هناك مجال للتعامل معها، أو التهوين من شأنها فهي كلها: " شر .. شر .. شر .. شر .. " وبقدر ما جاء "التجانس الاستهلالي" بهذا التماسك والقوة في الجرس وفي الدلالة، بقدر ما تراخت الفواصل، ليظل محور ارتكاز النص هو مستهل تراكيبه، تأكيداً على بؤرة الاهتمام ومحورها.

* أما في "الناس" فنلاحظ بوضوح تام "التجانس الخلفي"، وفي كل الأنساق الستة:

"..... الناس

..... الناس

..... الناس

..... الخناس

..... الناس

..... والناس"

التركيب: الناس الوسواس

٥ : ١

تأكيد الغلبة

ومن دلالات هذا التجانس الخلفي ما يلي:

– أنه لما كان الإضلال والأذى موجه للناس فقد ركزت الفواصل عليهم. ومن ثم جاءت الفواصل بلفظ "الناس".

– جاءت السورة حماية للناس وحدهم ومن ثم ورد هذا التجانس بلفظ "الناس" لتأكيد الأمر والتنبيه عليه، ولفت النظر إليه.

– وردت خمسة من التجانسات بلفظ "الناس" ولفظ واحد "الخناس" فالنسبة (١:٥) فلمن ستكون الغلبة؟

– الله رب العالمين، فلماذا جاء الحصر هنا والإضافة للناس فحسب "رب الناس" .....؟ "ملك الناس" ....؟ من الواضح أنه لفت نظر "الناس" لمدى الاهتمام بهم من قبل الخالق سبحانه، باعتبار أن "الناس" هم مناط الاختبار ومحل الاستخلاف.

– في التجانسات الثلاثة الألفاظ الأولى:

برب الناس

ملك الناس

إله الناس

لماذا حرص النص على التجانس الخلفي في الأنساق الثلاثة المذكورة؟ مع أنه كان بالإمكان إيرادها بنص واحد:[... برب الناس وملكهم وإلههم...] لو كان ذاك إذن لفقد النص جرسه وموسيقاه، ولفقد "الناس" ذلك الأمان المنبعث من تلك الإضافة التي أدخلت "الناس" في معية وحفظ وحماية الرب الرحيم والملك العظيم والإله القادر. (.... رب الناس، ملك الناس، إله الناس ....) وعلى "الناس" تأكيد الانتماء لمن هم خلقه وملكه وعبيده وليس لمن هو عدولهم وضار بهم ومتآمر عليهم. و"السين" في هذا التجانس تناسب "الوسوسة" المتخللة لثنايا النص، لتعطي إيحاء بالهمس الخفي الذي يصدر عن الوسواس(١).

الخاتمة

بهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة البحث في دراستنا هذه في إعجاز البناء التركيبي للنص القرآني سواء في تقنيات البناء أو في ثراء الدلالة. وقد تبينت لنا جملة من وجوه الإعجاز في هندسة البناء القرآني على مستوى الثمان السور المدروسة (عينة الدراسة). على مستوى تقنيات البناء في السور الأربع الطويلة أفصحت بعض تلك التقنيات عن نفسها بشكل سهل للباحث طريق الوصول إليها، فيما توجب في تقنيات أُخر تلمس الطريق بجهد، واستكناه التقنية بصعوبة. وهو ما تم استعراضه في الفصل الأول، لتظهر جملة من تقنيات التشكيل التي اشتمل عليها النص القرآني ومفاتيح قراءته مثل: تقنية "الترابط "في سورة "الأنعام"، وكذا تقنية "الحوار" في سورة "يوسف". اتضحت– أيضا– تقنية بناء سورة "الكهف" على محور الإرادة والمشيئة والقدرة، ولم يكن مستحيلاً التعرف على بنية التركيب الدلالي لسورة "مريم"، فقد كانت الكلمة المفتاح "الرحمة" هي اللبنة الأساسية في هندسة بناء هذه السورة ،ومفتاح قراءتها. وفي الفصل الثاني: حيث السور الأربع القصار، تبدت لنا هندسة بناء الفواصل في سورة "الطارق" واستناد بنيتها الدلالية على فواصلها، وكذلك تقنية التقابل في "العاديات"، والتجانس الاستهلالي والخلفي في "المعوذتين". وكما خدمت البنية التركيبية البناء الجمالي للنص القرآني بتقنياتها المتعددة، خدمت البنية الدلالية أيضا بإثرائها وتنوع مداخل قراءاتها.

(١) ممن درس المعوذتين من وجهة بلاغية الدكتور/ محمد بركات حمدي أبو علي، في كتابه: دراسات فيالإعجاز البياني، طبع وائل للنشر والتوزيع، عمان– رام الله ، ط١ / ٢٠٠٠م . (ص ٢٥ ، ٢٨) .

وليس هذا كل ما هنالك في جمال البناء القرآني، إنما هي ملامح منه فحسب، ونماذج ليس إلا، والله أعلم بمراده، وربما تجلى لكل دارس ملمح في البناء ورؤية في الدلالة لا يراها الآخرون. أما الإحاطة بتكنيك البناء القرآني فذلك "سرٌ" لا يمكن بلوغه، ويستحيل الوصول إليه.. لأنه "سرُ الإعجاز" ولا يعلمه سوى الذي يعلم السر وأخفى، ولكل مجتهد نصيب منه. وقد اجتهدت طاقتي والأمر لله من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله أعلم.

"قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً" (الفرقان –٦).

المصادر والمراجع

- بدري، عبد الجليل محمد (١٤٠٥هـ– ١٩٨٤م). براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور. ط٢، المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق.
- البنا، فؤاد (د.ت). **إيجاز البيان في إعجاز القرآن**. المبدعون: تعز، اليمن.
- البهي، محمد (١٣٩٦هـ– ١٩٧٦م) **نحو القرآن**. ط١، مكتبة وهبة: القاهرة.
- تقي الدين، السيد (د. ت). **من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم**. نهضة مصر للطباعة: القاهرة.
- توفيق، محمود (د . ت). منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة. مطبعة الإخوة الأشقاء: مصر.
- جمعة، سعيد (١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م). **من بلاغة القرآن في آيتي الدين والرهان**. مكتبة الآداب: القاهرة
- الجندي، عبد الحليم (١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م). **القرآن والمنهج العلمي المعاصر**. ط١، دار المعارف: القاهرة.
- الخضري، محمد (١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م). **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**: ط٥، دار ابن كثير. دمشق، بيروت.
- الدباغ، مصطفى (١٩٨٢م). **وجوه من الإعجاز البلاغي**. مكتبة المنار، الزرقاء: الأردن.
- دراز، محمد عبد الله (١٤٠٥هـ). **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**. طبعة دار الثقافة: الدوحة، قطر.
- الرضي، الشريف (١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م). **تلخيص البيان في مجازات القرآن**. ط١، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية: بيروت.
- رمضان، محي الدين (د.ت). **وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن**. دار الفرقان للنشر: عمان، الأردن.
- زهران، البدراوي(١٩٨٨م). **ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية**. ط١، دار المعارف: القاهرة.
- شاهين، عبد الصبور (عدد ديسمبر ٢٠٠٠م). **حديث عن القرآن**. إصدار دار أخبار اليوم، سلسلة كتاب اليوم، قطاع الثقافة: القاهرة.

- شحاتة، عبد الله (د . ت). **القرآن معجزة التاريخ**. دار مايو الوطنية للنشر: القاهرة.
- الشعراوي، محمد متولي (١٩٩١م). **تفسير الشعراوي**: القاهرة.
- الشعراوي، محمد متولي(١٩٨٩م). **معجزة القرآن الكريم**. دار العودة: بيروت.
- أبو علي، محمد بركات حمدي (١٩٩٩م). الآية التفسيرية وموقعها من البيان القرآني والبلاغة العربية. ط١، دار وائل للنشر: عمان، رام الله.
- عليوي، ابن خليفة(١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م). **معجزة القرن العشرين**. في كشف سباعية وثلاثية القرآن الكريم. ط١، دار الإيمان: دمشق، بيروت.
- الغزالي، محمد (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م). **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**: دار الشروق القاهرة.
- الكبيسي، خليل رجب حمدان التناسق الموضوعي والبنيوي في قصة لقمان في القرآن الكريم (٢٠٠٢م). **مجلة الباحث الجامعي**، جامعة إب، ج . ي، العدد الرابع/ السنة الرابعة.
- أبو موسى، محمد محمد (١٤١٦هـ – ١٩٩٦م). **من أسرار التعبير القرآني**. دراسة تحليلية لسورة الأحزاب.